

نظريات وافدة

كشف الفكر الإسلامي زيفها

أنور الجندى

دار الاعتصام



بسم الله الرحمن الرحيم



فى حوالى القرن الاخير (١٨٧٠ تقريبا الى) اليوم القى الى الفكر الاسلامى والثقافة العربية نظريات ومذاهب وافدة كثيرة ، فى مختلف مجالات اللغة والدين والاجتماع والحضارة والتربية والتراث .

وهى نظريات فرضت فى الاغلب فرضا تحت ضغط ظروف الغزو الاستعمارى والاحتلال البريطانى والفرنسى للعالم الاسلامى ، وقد القيت هذه النظريات من خـــلال الارساليات ومعاهدها وفروعها ، وكان مجال الصـــحافة والتعليم والثقافة ابرز ميادينها .

وقد غلف الدعاة الى هذه النظريات دعوتهم بحماسة الرغبة فى النهضةوالتجديد والاستجابة لروح العصر،والخروج من الجمود ، وكسر قيود التقليد ومقاومة الرجعية والتماس مناهج الغرب الناهض فى خطوه ، لمساواته ومحاذاته .

وقد حملت هذه الدعوات اساسا فكرة واضحة ، هى ان امتنا واوطاننا ليست من العرب ولا متصلة بافريقيـــــا وآسيا ولا تربطها بالصحراء العربية رابطة ، ولكنها متصـــلة باليونان قديما ، وبالغرب حديثا .

وقد ابتدت هذه النظريات الى العقل فقالت ان العقل المصرى والسورى والمغربى هو عقل اوربى ، وان الفكر الاسلامى هو فكر يونانى ، وما الى ذلك من مجازفات خارجة عن ادنى حدود العلم والمنطق والتدقيق . وكلها تهدف الى عزل كل وطن عربى عن العرب كأمة وعرق من ناحية وعن الاسلام كفكر وثقافة من ناحية اخرى .

وقد صدرت مؤلفات تحمل مثل هذه الآراء أريد بها احداث ضجة كبرى ، كعامل هام فى سبيل ترديد هذه النظريات الوافدة واعادة غرسها فى العقول والنفوس . وقد جرت المساجلات ساخنة ومثيرة ، حول هذه الافكار ثم انتقلت هذه القضايا من اعمدة الصحف الى منابر الجماعات الى مجال البرلمان ، وكان نفوذ الاستعمار وقواه تعمل فى مجال البرامج التعليمية والمناهج الجامعية والصحف الكبرى والاسماء اللامعة من اجل اقرار هذه الآراء .

غير ان هذه النظريات لم تلبث طويلا حتى تحطمت ، وما عتمت هذه التيارات ان تقضى عليها ، وفشلت فى تحقيق الهدف منها ، ذلك ان ذاتية الفكر العربى الاسلامى المستمدة من قيمه ومقوماته الاصيلة عميقة الجذور قد رفضت هذه المحاولات التغريبية لاخراج هذه الامة من جلدها واذابتها فى الفكر الاممى الشعوبى غير ان الامر لم يتوقف بالتغريب عند حد الهزيمة فانه سرعان ما جند هذه الدعوات والبسها صورة

جديدة وتدمها مرة اخرى وما تزال رحى المعركة دائرة بين الزيف والصحيح ، وبين الاصالة والتبعية ».

في مقدمة هذه النظريات تكريم ادب الاغريق واعلاء ادب اليونان على الادب العربي ، ودعم شأن الاقليميات الضيقة : كالمصرية والفينيقية والبربرية وغيرها من الدعوات ، والنهى على العرب ومحاولة انتقاص وجودهم وكيانهم ، واثارة الخلاف ومحاولة تمزيق الرابطة العضوية بين العروبة والاسلام ، ومعارضة الشريعة الاسلامية واثارة الشبهات حول اصالتها ، ومقاومة اللغة العربية الفصحى والدعوة الى العاميه ، هذا الى المحاولات الضخمة المبذولة من اجل دحر الحقيقة الواضحة الكبرى وهى ان الاسلام دين ونظام اجتماعى معا ، هذا فضلا عن محاولة توجيه النقد الى القرآن ووصفه بأنه كتاب اوربى او كتاب وضعه النبى محمد وكذلك الى اسقاط الحضارة الاسلامية وانكار عطائها للحضارة العربية ، والدعوة الى ما يسمى عالمية الثقافة ، وهو تذويب قيم الثقافة العربية فى اتون الفكر الغربى مع الفروق الواضحة بينهما . ومحاولة توسيد قيم وافدة فى مجال التربية والتعليم تتعارض مع ذاتية الامة ومزاجها النفسى ، وذلك الى مهاجمة التراث العربى الاسلامى واثارة الشكوك حوله وانتقاصه ».

كما عهدت حركة التغريب الى اذاعة نظريات فرويد

تتعارض مع قيم الفكر الاسلامى ، ومن ابرز هذه المخططات العمل على انتقاص اعلام الاسلام وابطاله ، فضـــلا عن طرح مفاهيم غربية فى البطولة نفسها تستمد طابعها من مفهوم المسيحية الغربية القائم على ما يسمونه الخلاص ، وكذلــك اذاعة الادب المكشوف والاباحية الفكرية مع الدعـــوة الى الالحاد من خلال مفاهيم الفلسفة المادية ، هذا بالاضـــافة الى محاولة اعلاء اتجاه التعبير المادى فى مجالات التـــاريخ والاقتصاد والاجتماع .

وقد راجت هذه الافكار رواجا شديدا ، ووجد النفـــوذ الاستعمارى عن طريق ادواته العديدة وفى مقدمتها المدرسة والصحيفة مجالا كبيرا لاذاعة هذه الافكار ودعمها .

وصدرت فى ذلك كتب عديدة واثيرت مساجلات ومعارك ادبية متعددة .

غير ان هذه النظريات لم تلبث فى ضـــوء الحقيقة ان سقطت وتحطمت .

حاولت هذه الكتابات ان تنقل وجهات النظر التغريبية الى مجال الفكر العربى الاسلامى فى مختلف مفاهيمه واعتمدت على وجهات نظر المبشرين والمستشرقين وهى وجهـــات نظر خطيرة مغرضة مصاغة بعناية وحذر يراد بها اغراء القارىء العربى ــ وخاصة ذلك الذى لم يعرف كثيرا عن الفكر الاسلامى

ــ حتى يتقبلها بسرعة وقد استخدم لها باحثون القيت اليهم اضواء واسعة من الشهرة والمكانة .

وقد اتصلت هذه الكتابات بالتاريخ والادب والاجتماع واللغة العربية وحاولت ان يتجرد من كل صلة لهذه العلوم بالاسلام فى محاولة للتعمية والتضليل .

ولما كان الفكر الاسلامى يمثل وحدة كاملة ، وكانت هذه العلوم اجزاء منه يتكامل بعضها مع البعض الآخر ، دون ان ينفصل احدها او يشكل وحدة مستقلة ، فقد رأى دعاة التغريب فى مكر بالغ ، ان يبتعدوا عن (الاسلام) كدين بصورة واضحة ، وان يجعلوا ضرباتهم موجهة الى هذه الجوانب حتى يكونوا فى مأمن من حملات العلماء ، وحتى يتحقق لهم بهدم هذه النواحى اصابة الاسلام فى قلبه واعماقه .

فهذا كتاب يريد ان يصل صاحبه فى بحث له طابع علمى براق الى ان الخلافة ليست اصلا من اصول الاسلام وان نظام الحكم كان حرا طليقا ، الى هنا والمسألة فى نظر الباحث غير المتعمق ــ يسيرة وربما مقبولة ، ولكن هناك هدف المحق وراء ذلك ، ذلك هو الادعاء بأن الاسلام كان دينا روحيا خالصا وان شؤون السياسة والمجتمع والحكم لم تكن منه جزءا لا يتجزا ، وبذلك احدث الكتاب ثلمة خطيرة فى ادق مقومات الاسلام الاساسية التى تفرق بينه وبين الاديان القائمة على العقائد وحدها دون الشريعة ، وعلى اللاهوت

وحده دون نظام المجتمع ، ولكى نعرف مدى خطر هذا الراى ان تلقفه المستشرقون ومضوا يصرخون بأن فى الاســـلام مذهبين وليس مذهب واحد احدهما يقول بأن الاسلام دين وليس له دولة ، وحيث ان مستشرقا لم يجرؤ على هـــذا الادعاء قبل ان يصدر مثل هذا الكتاب ، وهذا الكتاب ما يزال فى الايدى ، وهناك اكثر من بحث للرد عليه ودحض مزاعمه ، ولقد كان علينا ان نعلم ما هى خفايا هذا البحث والغرض منه هنالك نجد انه عمل سياسى اصلا ، اريد به معارضة اتجاه لاحياء الخلافة ومن ثم فقد انتصرت الـدعوة فى مجـــال الخصومة الحزبية والسياسية ولكنها تركت آثارا مريرة فى مجال الفكر الاسلامى ، فقد ادخل مفهوما ليس اســلامى الاصل ، من مفاهيم الفكر الاوربى المسيحى القائل بالفصل بين الدين والدولة وهو ما لم يعرفه تاريخ الاسلام ومن عجب ان كتابا فى الفقه الاسلامى لا تجد فيه مرجعا واحدا من كتب الفقه وانما يعتمد على مثل الاغانى والعقد الفريد !!

وهناك كتاب شهير اراد صاحبه ان يدعـــو الباحثين والادباء الى ان يحجبوا دينهم وقوميتهم وهم بسبيل البحث فى الادب ، وكان ذلك جريا وراء تغريب الادب العربى باخراجه من وضعه الصحيح فى الفكر الاسلامى كجزء منه لا ينفصل ، ولا يمكن دراسته الا فى موضعه الصحيح ، فلقد كان للاسلام فى الادب العربى اثر ضخم بعيد المدى ومن هنا فانه من العسير اشد العسر ان ينفصل الادب عن الفكر الاسلامى ولان ان يدرس حرا من هذا الارتباط الاجتماعى والاخلاقى ، وهـــو ارتباط عضوى اصيل .

ولقد جنى الادب العربى من هذا المذهب الوافــد فى النقد الادبى آثارا مريرة عظيمة ، فقد فتح الباب امام انكار نصوص الكتب المنزلة وفى مقدمتها القرآن ، كما فتح الباب أمام محاولة نقد آيات القرآن وانه جزا الادباء على التركيز علىابى نواس وبشار والضحاكعلى انهم نماذجالادبالعربى بينما ابعدت اثار الغزالى وابن تيمة وابن حزم ، فضلا انه فتح الباب امام الاباحيات والادب المكشوف واعلانه ، والجراة على قيم الاسلام ، فضلا عن خطا اعطاء الادب هذه الحرية فى الحكم على امور لا تدخل تحت نفوذه ، وفى التوسع لفرض سلطانه على قضايا المجتمع والدين والتربية والاخلاق ، وهذا ما لــم يكن من مفهوم الفكر العربى الاسلامى المتكامل الشامل .

ولقد كان ذلك اتجاها خطيرا فىخطة التغريب يهدف الى تحقيق نتائج مضللة تنكشف ، فنحن نرى كيف اصبح مثل كتاب (الاغانى) مرجعا من مراجع البحث العلمى والتــاريخى تؤخذ منه النصوص ليستدل بها فى قضايا الدين والاجتمـــاع والتاريخ ، بينما لم يكن هذا الكتاب فى الواقع الا مجموعة من الاصوات الغنائية وقد وضعه مؤلفه للملوك والخلفــاء لازجاء فراغهم بقصص ذوى الاهواء واهل الفن وانه فى ذلك لا يدخل فى باب المراجع الموثوق بها ولا المصادر العلمية ، وهو الى ذلك لا يستطيع أن يمثل صورة حقيقية للحياة السياسية والاجتماعية فى مجتمع زاخر بالقوى الفكرية من الفقهـــاء والعلماء والفلاسفة والصوفية والمؤرخون ، وقد تأكد من اكثر من مصدر ان ابا الفرج الاصفهانى ليس مؤرخا ولا يصلح كتابه

لان يكون مادة تاريخ ، وانما هو جماع لقصص فيه الصحيح والزائف جمعه من الاسواق ، وقد شهد عليه كثيرون بالانحراف : فقال اليوسفى المؤرخ « ان ابا الفرج اكذب الناس لانه كان يدخل سوق الوراقين وهى مملوءة بالكتب فيشترى منها شيئا كثيرا من الصحف ويحملها الى بيته ثم تكون رواياته كلها منها ، بل ان المؤرخين قد وصفوه بأنه رجل عار عن الثقة به .

والحق ان الباحثين المسلمين قد التفتوا منذ وقت بعيد الى خطر المصادر الادبية كمراجع للبحوث العلمية والتاريخية وقد اشار العلماء الى من اسموهم « اهل الغفلة والهوى الذين اعتمدوا فى تاريخهم على كتب الادباء واسفار الاخبار » فأهل الادب كما يقول القاضى ابو بكر ابن العربى « هم الذين غلبت عليهم صناعة الادب فمالوا الى كل غريب من الاخبار دون ان يتحروا الصدق ويهتموا بالرواية والاسناد لقول القاضى ابن العربى فى كتابه العواصم من القواصم : « لتحذروا من اهل الادب فانهم اهل جهالة بحرمات الدين او على بدعة مصرين فلا تبالوا بما رووا » .

من خلال الاعتماد على مثل كتاب الاغانى (وكتب المحاضرات جميعها مردودة كمصادر علمية وتاريخية) وصل بعض الباحثين الى القول بأن القرن الثانى من الهجرة كان عصر شك ومجون ، وأن هذا الحكم قد صدر اعتمادا على دراسة بعض الشعراء المجان ، فاستطاع هذا الكاتب فى جرأة عجيبة ان يقول بأن هؤلاء الشعراء يمثلون عصرهم ويخولون

له الحق فى اصدار حكم على العصر كله ، بينما يوجد فى ذلك العصر عشرات من الادباء والعلماء والمفكرين والباحثين ، ولا يمكن ان تتم صورة عصر الا بدراسة النماذج المختلفة فيه .

وبعد فان على شبابنا المثقف وكتابنا وادبائنا ان يقفوا موقفا علميا كلما صدفهم مرجعا أو مصدرا من المصادر الشهيرة ، وان يسألوا انفسهم سؤالا واضحا :

الم تصدر فى مناقشة هذه الآراء ردود او معارضات .

ثم عليهم بعد ذلك ان يبحثوا عن هذه الكتب ويقراوها .

فاذا كان من مصادر الكاتب او الباحث كتب مثل :

الشعر الجاهلى او الاسلام واصول الحكم او فلسفة ابن خلدون الاجتماعية او تحرير المراة او نظرية التطور او حديث الاربعاء او هامش السيرة او مع المتبنى ، او مستقبل الثقافة او الاخلاق عند الغزالى او النثر الفنى ، او غيرها من مؤلفات ، فان ضرورة التحقيق العلمى تقضى على القارىء ان يراجع كل ما كتب عن هذه الابحاث من ردود ومعارضات ذلك ان هذه الابحاث لم تكتب الا فى ضوء تحديات خطيرة هى تحديات الغزو الفكرى والتغريب وان كتابها يجب ان يعرضوا على قانون « الجرح والتعديل » .

فى عام ١٩٧١ كتبت الى مجلة دعوة الحق الزاهرة البحث الاول فىهذا الموضوع ثم شغلت عنه وكان الهدف هو

لفت نظر الباحث المسلم الى ان هناك نظريات وافدة طرحت فى افق الفكر الاسلامى وقد تناولها الباحثون بالنقد والـرد والتفنيد فى وقتها غير ان ذلك لم يجمع فى حينه فى كتـاب ومن ثم ظلت هذه الكتب التى تحمل النظريات متداولة كأنما هى حقائق ثابتة واعيد طبعها مرات ومرات ولقد لاحظت ذلك وتأثرت به حين رأيت الكثيرين من شبابنا المسلمين القادمين من كل مكان فى العالم الاسلامى يبحثون عن سلامة موسى وطه حسين وعلى عبد الرازق ومحمود عزمى فيجدون مقالاتهم المليئة بالشكوك مجموعة فى كتب انيقة ثم لا يجدون ما وجـه اليها من ردود وما فند من اتهامات لانها لا تزال مدفونة فى بطون الصحف والدوريات ، ولقد دعانى هذا ان اجمع فى مجلدين كبيرين اغلب هذه المعارك تحت عنوان (المعـارك الادبية) وتحت عنوان (المساجلات والمعارك الادبية) وذلك فى محاولة لكى اضع تحت عين القارىء وجهة النظر الاخرى التى كانت غائبة عنه والتى تكشف ان لكل رأى ردا وان مثل هذه المحاولات فى فرض نظريات وافدة قد استشرى فى فترة الثلاثينيات وما بعدها واتسع نطـاقه حتى شمل مختلف ميادين الفكر ، ولكن الحق أن قضية ما من هذه القضايا لم تمر دون تحميص فكتاب طه حسين عن الشعر الجـاهلى ووجه بالرد من كثيرين وصدرت كتب عديدة فى تفنيده منها تحت راية القرآن لمصطفى صادق الرافعى كما صدر كتاب محمد فريد وجدى وكتاب محمد لطفى جمعه وكتاب للشيخ الخضر حسين وكتاب (النقد التحليلى) للدكتور محمد احمد الغمراوى هذا بالاضافة الى عشرات الموضوعات والبحوث التى حفلت بها الصحف وجمعت بعض اطرافها فى كتابى المذكورين عن المعارك الادبية . كذلك صدرت فى السنوات الاخيرة اطروحة

الدكتور ناصر الدين الاسد عن حقيقة الموقف فى الشعر الجاهلى وانتحاله .

وبالنسبة الى كتاب على عبد الرازق عن الاسلام واصول الحكم صدرت فى حين صدوره رسائل مطبوعة للشيخ الخضر حسين ومحمد الطاهر عاشور والشيخ رشيد رضا وصدر فى العام الماضى كتاب ضخم مفصل عن هذه القضية للدكتور ضياء الدين الريس .

أما بالنسبة لما اثاره سلامه موسى عن اللغة العربية فقد نوقش وجمع ، وكذلك ما اتصل بآراء ساطع الحصرى ومحمود عزمى .

ولقد عورضت نظريات لطفى السيد عن الاقليمية المصرية وآرائه عن التعليم ووجدت نظرية ثقافة البحر المتوسط التى اثارها طهحسين ومحمودعزمى تفنيدا وتصحيحا وكذلك عارض الباحثون نظرية امين الخولى عن اقليمية الادب ورد الدكتور محمد احمد الغمراوى على محاولات نقد النص القرآنى التى قام بها زكى مبارك وكذلك رد كثيرون على محمد أحمد خلف الله ورسالة القصص الفنى فى القرآن .

أما النظرية المادية التى عرضها شبلى شميل وسلامه موسى من بعد فانها لم تمض بدون نقد ومراجعة وكذلك نظريات الدين فى التربية .

وكانت اكثر الشبهات التى طرحت فى افق الفكر الاسلامى تستهدف السيرة النبوية والقرآن واللغة العربية

والحضـــــارة الاسلامية والتاريخ الاسلامى وفى معظم هذه النظريات فقد غلفها بريق كاذب وحاول صياغتها ووضعها فى اطار علمى وصاحبتها دعوة طنانة الى النهضة والتجديد والاستجابة لروح العصر والخروج من الجمود وكسر قيد التقليد ومقاومة الرجعية ، وفى اعماقها دعوة صريحة الى التبعية والانصهار فى الفكر الغربى ايمانا بأن هذا هو الطريق الوحيد لمساواته ومحاذاته ، وقد حملت هذه الدعوات اساسا فكرة ان امتنـــا ليست من العرب وان الاسلام قد مر عليها كما تمر كل الدعوات وان العقل المصرى او السورى او المغربى هو عقل اوربى وان الفكر الاسلامى اصلا هو فكر يونانى وما الى ذلك من مجازفات تستهدف عزل المسلمين عن فكرهم الاصيل وعن كيانهم الخاص وذاتهم التى تتماثل . وقد صدرت مؤلفـــات احدثت ضجة كبرى ، لم تكن هذه الضجة بالقبول ولـــكنها كانت بالرفض وجرت مساجلات ساخنة ومثيرة انتقلت من اعمدة الصحف الى اندية الجمعيات الى منابر الجامعـــات ولكن هذه النظريات لم تجد قدرتها على الحياة لانها دخلية وزائفة ونبت لا يقوى على الحياة فى ارض لم تمتصـــــــه وطقس لم يستسيغه ولذلك ما لبثت ان تحطمت ، وان عمد الدعاة اليها الى تجديدها مرة بعد مرة واثارتها فى صورة واخرى ومن هذه النظريات :

(١) اعلاء ادب الاغريق على الادب العربى ومحاولة فرض الذوق الهلينى على العرب .

(٢) اعلاء شأن الاقليميات الضيقة كالمصرية والفينيقية والبربرية وغيرها .

(٣) النعى على العرب والمسلمين ومحاولة انتقاص وجودهم وكيانهم .

(٤) معارضة الشريعة الاسلامية واثارة الشبهات حول اصالتها .

(٥) مقاومة اللغة العربية الفصحى والدعوة الى العاميات .

(٦) التنكر للحقيقة الواضحة وهى ان الاسلام دين ونظام مجتمع فى آن .

(٧) محاولة توجيه النقد الى اسلوب القرآن ووصفه بانه كتاب ادبى .

(٨) محاولة اسقاط الحضارة الاسلامية وانكار عطائها للحضارة الغربية .

(٩) الدعوة الى ما يسمى « عالمية الثقافة » ومحاولة تذويب قيم الثقافة الاسلامية فى اتون الفكر الغربى مع تجاهل الفوارق الواضحة بينهما .

(١٠) محاولة اثارة الشبهات حول العلاقات الجذرية بين الاسلام والعروبة .

(١١) محاولة توسيد قيم مقتبسة فى مجال التربية والتعليم تتعارض مع ذاتية الامة ومزاجها النفسى .

(١٢) مهاجمة التراث العربى الاسلامى واثارة الشكوك حوله وانتقاصه .

(١٣) اذاعة نظريات فرويد فى النفس وسارتر فى الوجودية ودور كايم الاجتماع وكلها تتعارض مع قيم الفكر الاسلامى .

(١٤) انتقاص اعلام الاسلام وابطاله .

(١٥) اذاعة الادب المكشوف والاباحية الفكرية مع الدعوة الى الالحاد .

(١٦) محاولة اعلاء اتجاه المادية فى مجالات التاريخ والاقتصاد والاجتماع .

وقد راجت هذه الافكار رواجا شديدا وكثر ترديدها حتى كادت ان تصبح من المسلمات ووجد النفوذ الاستعمارى عن طريق ادواته العديدة وفى مقدمتها المدرسة والصحيفة مجالا كبيرا لاذاعة هذه الافكار ودعمها .

وصدرت فى ذلك كتب عديدة منها مؤلفات جرجى زيدان (التمدن الاسلامى) ومؤلفات طه حسين « حديث الاربعاء — فى الادب الجاهلى — مستقبل الثقافة — مع المتنبى — هامش السيرة » ومؤلفات سلامه موسى (اليوم والغد — البلاغة العصرية) وعلى عبد الرازق « الاسلام واصول الحكم » ولطفى السيد (ترجمات ارسطو) بالاضافة الى بعض كتابات توفيق الحكيم ومحمود عزمى ، وزكى مبارك

وابراهيم مدكور وامين الخولى وحسين فوزى ولويس عوض وزكى نجيب محمود .

غير ان هذه النظريات لم تلبث ان انكشف فسادها وزيفها وعرف المثقفون الاهداف القائمة وراء اذاعتها وترديدها .

ولقد احدث الشيخ على عبد الرازق « ثلمة » فى الاسلام سيظل يحمل وزرها امدا طويلا فلاول مرة يجرؤ عالم ازهرى مسلم الى القول بأن الاسلام دين روحى وانه لا صلة له بنظام الحكم ، مهما كان سياق الدعوة او ظروفها السياسية التى اراد ان يخدم بها حزب الاحرار الدستوريين او الانجليز او المعارضين للملك فؤاد فانه فى سبيل غاية هينة قد استخدم نصوصا اراد بها ان يحجب حقيقة اساسية هى ان الاسلام نظام مجتمع ومنهج حياة متكامل ومنذ ذلك اليوم يكتب المستشرقون فيقولون : ان فى الاسلام نظريتين : احداهما تقول بأن الاسلام دين ودولة والاخرى تقول ان الاسلام دين روحى وصاحب هذه النظرية هو على عبد الرازق ومن سار على طريقه من بعده ومن خريجى الازهر ايضا مع الاسف .

هذه الثلمة تكذبها كل الوقائع التاريخية وكل النصوص والاسانيد ، ومن يقرأ بحث على عبد الرازق الذى حاول دعاة التغريب فى السنوات الاخيرة اعادة طبعه ونشره بعد أن مات وانطوى اكثر من اربعين عاما — يجدون انه لم يعتمد على كتاب من كتب الاصول وانما كان اعتماده على مراجع ادبية كالعقد الفريد وغيره . وقد كان جل اعتماد على

عبد الرازق على بعض الكتب التى صدرت فى تركيا لتبرير الغاء الخلافة وهى مؤلفاتكتبها اليهود الدونمة الذين كانوا يطمعون فى تحطيم هذا البناء منذ وقت طويل حتى يستطيعوا ان ينفذوا الى فلسطين بعد أن وقف السلطان عبد الحميد فى وجههم سدا منيعا ، وكل ما جاء به على عبد الرازق نقلا من هؤلاء انما هو مستمد من نظريات الفكر المسيحى حول البابوية والفصل بين الدين والدولة وهو النهج الذى وصلت اليه اوربا بعد الصراع الطويل بين الكنيسة والشعب وكان جل اعتماده فى نصوصه المنقولة على شطائر تؤيد وجهة نظره استعان بها وترك الاجزاء الباقية مغالطة منه وتبريرا لوجهة نظره بالاضافة الى اعتماده على كتب المحاضرات والادب وهى ليست مراجع للبحث الفقهى الجاد .

والحق ان الباحثين المسلمين قد التقتوا منذ وقت طويل الى خطر المصادر الادبية كمراجع للبحوث العلمية والتاريخية وقد اشار كثيرون الى « اهل العقل والهوى الذين اعتمدوا فى تاريخهم على كتب الادب واسفار الاخبار » فأهل الادب كما يقول القاضى ابو بكر بن العربى فى كتابه العواصم من القواصم « هم الذين غلبت عليهم صناعة الادب فمالوا الى كل غريب من الاخبار دون ان يتحروا الصدق ويهتموا بالرواية والاسناد وهم اهل جهالة بحرمات الدين او على بدعة مصريين »

اما كتاب فى الشعر الجاهلى والادب الجاهلى من بعده

فان القضية الكبرى والاساسية التى حاول مؤلفه ان يفرضها هى ان على الباحثين ان يحجبوا دينهم وقوميتهم وهم بسبيل الى البحث العلمى نقول (حتى اذا كان دينهم هو الاسلام) الذى هو مصدر كل مناهج البحث واساس علوم المعرفة والذى هدى البشرية الى نقد الرواة والى الجرح والتعديل والى التأكد من سلامة المصادر .

ولكن المؤلف لم يكن ليؤمن بذلك اساسا لانه حاول انكار نصوص من القرآن عن ابراهيم واسماعيل وقال مهما تحدثنا التوراة ويحدثنا القرآن عن ابراهيم واسماعيل فان الحقيقة التاريخية تقول انهما من الشخصيات التى لم توجد اساسا ، ولقد كان الهدف الرئيسى فى الشعر الجاهلىاساسا هو انتقاص هذه الاسس فى الاسلام وانتقاص رسوله الكريم الذى قال عنه (لامر ما كان لابد ان يكون محمد من قريش) ومن يراجع الكتب التى تصدت لهذا الكتاب والابحاث والمعارك التى دارت حوله يجد تحديا واضحا صريحا للحقائق الاسلامية والسنة الصحيحة ولكل ما يتصل بتاريخ رسول الله واصحابه ، فاذا ربطنا هذا بكتاب هامش السيرة وجدنا جانبا آخر اراد طه حسين ان يطعن فيه ذلك هو اعادة الاساطير مرة اخرى الى هذه السيرة بعد ان نقاها المسلمون منها وحرروها ، ونحن لسنا الذين نقول ذلك ونأخذه عليه ، ولكن ذلك ما يقوله رفيق شبابه الدكتور محمد حسين هيكل صاحب كتاب حياة محمد ، ونجد الجانب الثالث من العمل

الخطير متمثلا فى كتاب الفتنة الكبرى وهنا نجد طه حسين يحاكم صحابة رسول الله على انهم بعض السياسيين فى العصر الحديث ورجال الاحزاب واصحاب المطـــامع والمؤامرات ومحاولة ازاحة ذلك الجو الرفيع الذى يجب ان ينظر فيه الى هؤلاء الصحابة الكرام وتلك هى أهداف طه حسين كما أشار اليها هو نفسه فى اكثر من موضع « اسقاط التقديس لـــكل قديم »

واذا كان هذا من الاطروحات الغربية التى عرفها الفكر الاوربى بعد الثورة الفرنسية وتحت ضغط خلافات عميقة بين رجال العلم ورجال الدين وتحت تأثير جمود الفكرة الدينية وفسادها فى الغرب فما شأننا به نحن فى عالم الاسلام حيث نجد الفكر الاسلامى بسماحته وسعته وقدرته الوافرة على العطاء فى كل المجالات وحيث لا يصطدم الدين بالعلم وحيث لا تتعارض الثوابت والمتغيرات وحيث ان القديم ليس فـــكرا بشريا يكتنفه الفساد والاضطراب ، ولكن القديم هو ذلـــك الهدى الربانى الكريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه

تلك كانت غاية طه حسين واضحة فى كتاباته الاسلامية كلها من الادب الجاهلى الى هامش السـيرة الى الفتنـــة الكبرى : (اسقاط التقديس لكل قديم) دون تحديد لهذا القديم هل هو الاصل الربانى الموحى به ام العمل الفكرى الذى قام عليه ، فضلا عن احيائه لتراث الزنادقة والشعوبية واعادته

طبع اخوان الصفا ومقدمة ابن المقفع لـــكتاب كليلة ودمنة والدعوة الملحة التى ظل يدعوها طوال حياته بفضل الهلينية والفكر الاغريقى على الفكر الاسلامى وهى دعوة زائفة مبطلة كذبتها مدرسة كاملة قادها الشيخ مصطفى عبد الرازق وتابعها كثير من الاعلام فى مقدمتهم الدكتور على سامى النشـــــــار ومحمود قاسم .

ولو كان طه حسين ناقدا سليم القلب لفرق بين الميراث الاسلامى السماوى والسنة الصحيحة وصادق ما كتب اهل السنة والجماعة وبين التراث الاسلامى المتصل بالشـــعوبية والزندقة والباطنية ، ولكنه كما يبدو واضحا من كل كتاباته انماكان يغمغم فى هذه الدعوى وهو يقصد: الوحى والنبوة والقرآن وان كان لا يقدر على ان يكشف عن ذلك خوفا وفرقا مما كاد يصيبه عند ما اصدر كتاب فى الشعر الجاهلى ، لقد فتح الباب لكل شبهة وحملت مؤلفاته اوشال الشعوبية القديمة وزيف اراء المستشرقين فى كل الجوانب التى يمكن ان يصل اليهـــا الباحث لم يغادر منها واحدا مستعملا اسلوب (الشـــــك الفلسفى) لبث الشبهات والتساؤلات دون أن يدل أحدا على ضوء من رأى صحيح ولكنها المحاولة المستمرة للتشكيك .

فهو الداعى الى الفرعونية والادب المكشوف وان عصر الاسلام الاول عصر شك ومجون وهو الذى سخر بابن خلدون علامة فكرنا ، ووصف المتنبى شاعرنا الاكبر بانه لقيط ليس له

اب ، وهو الذى قال لطلبته فى كلية الآداب ان القرآن كتاب ادب يوضع موضع النقد ويقال ان هذه الآية كذا وكذا وهو داعية (عالمية الثقافة) لينصهر الفكر الاسلامى فى بوتقة الاممية وداعية نقل مناهج التعليم والتربية الغربية وهو الذى اتخذ من كتاب الاغانى مصدرا لدراسة المجتمع الاسلامى وهو كتاب غير مؤهل لهذه الدراسة . وهو الذى فتح الابواب لهؤلاء جميعا الذين جرأوا على مواريث الاسلام ، ومن الحق ان يقال ان الباحثين المسلمين لم يؤمنوا لحظة بمذهب تقديس السلف سواء فى التاريخ او غيره ، ولكنهم كانوا يؤمنون ولا يزالون بحماية هذا الميراث العظيم الذى اعطاهم الاسلام وتكريم هؤلاء الصفوة من الصحابة الاعلام الذين شادوا هذا المجد ، وتجاوزهم البحث فى هذا الخلاف الذى دخلته زيوف كثيرة واكاذيب كثيرة وكانت وجهتهم دائما الى القرآن وحده والى التماس الاسوة من الرسول صلى الله عليه وسلم فهو المعصوم والمؤيد بالوحى وقد فصلوا دائما بين (منهج الاسلام) وبين (تاريخ المسلمين) ولكنهم لم يكونوا ليجرؤ على تناول تراثهم على هذا النحو من الاحتقار والسخرية والمهانة التى حاول طه حسين ان يتناوله بها .

***

دار العلوم للطباعة

القاهرة : ٨ شارع حسين حجازى (القصر العينى)
ت : ٣١٧٤٨